إسلام مغول القبجاق

محمد أبو القاسم صالح(*)

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى رصد مظاهر تأثر المغول بالإسلام، وكيف غير دين الله هؤلاء القوم من غزاة قساة، لا يعون حضارة، ولا يحفظون أرواح البشر، ولا يعرفون إلى السيف إلى قوم مسلمين متمسكين بدين الله متسامحون مع أهل الديانات الأخرى، يقربون الدعاة ويقدرون العلماء، ويستقدمون الصناع والمهرة لتشييد القصور وصناعة كل ما يستعمله الإنسان في ذلك الحين.

مقدمة:

كان المغول يدينون بالشامانية: وهي نوع من الديانات الوثنية كانت تتمثل في عبادة كل شيء يسمو على مدارك المغول، ويصعب على أفهامهم. كما تمثل أيضا في عبادة كل ما يخشونه ويرهبونه، فلهم آلهة في النهر والجبل والشمس والقمر والبرق الخاطف والرعد الغاضب."(١)

كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى لاعتقادهم أن لهذه الأرواح سلطاناً كبيراً على حياتهم ، كما كانوا يؤمنون بالقوى السحرية ولكي يوفق المغول هذه القوى السماوية والعالم السفلي كانوا يلجؤون إلى رجال الدين الشامان والسحرة أو إلى رجال الطب الذين يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان

(*) باحث ماجستير - كلية دار العلوم - جامعة الفيوم

غريب على أرواح الموتى"[٢] وقد ضمن ذلك للسحرة والكهنة الشامانيين سلطانا كبيرا على حياة الناس"[٣]

وقد قام تنافس شديد بين المسلمين والمسيحيين والبوذيين على كسب المغول لدينهم " ليس هناك في تاريخ العالم نظير ذلك المشهد الغريب وتلك المعركة الجانبية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام كل ديانة تنافس الأخرى لكسب قلب أولئك الغزاة القساة الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ، فانتشر الدعاة والمبشرين في جميع الأقطار والأقاليم، واستطاع الإسلام بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الغزاة المتبربرين وحملهم على اعتناقه[٤]

تحول مغول القبجاق للإسلام

كان لمغول القبجاق السبق في الدخول في الإسلام على خلاف مغول فارس ومغول تركستان ، وذلك نظرا لعدة أسباب توافرت لهم من أهمها:

أ- أن مغول القبجاق كانوا محاطين بقوى إسلامية من جهات عدة "وكان ضغط الإسلام يتدفق قويا ومؤثرا على هؤلاء المغول من ثلاث نواح من الشرق حيث خوارزم وتركستان الإسلامية ومن الشمال حيث شعب بلغار الفولجا المسلم ، ومن الجنوب حيث سلاجقة الروم المسلمون.[٥]

ب-كان غالب رعايا مغول القبجاق من المسلمين ولم يكن المغول يمثلون أغلبية في المناطق التي احتلوها وإنما كانوا أقلية بالنسبة للرعايا الذين دانوا لهم ، فلم يرد حكام المغول أن يعتنقوا ديانة بعيدة عن ديانة رعاياهم فذلك يعرضهم لمشاكل شعوبهم ويخلل الثقة بين الحاكم والمحكوم"[٦].

ج- كان للترك تأثير عظيم في تحول مغول القبجاق إلى الإسلام "ذلك أن مغول هذه البلاد وجدوا أنفسهم يعيشون بين قبائل تركية قديمة العهد

بالإسلام ويشتركون معها في نفس الوقت في الأصول العرقية ويتشابهون معها في كثير من العادات والتقاليد والميول والنزاعات[٧]

وقد مر انتشار الإسلام في مغول القبجاق بمرحلتين:

المرحلة الأولى: هي مرحلة التمهيد والتهيئة وفيها أسلم بعض الخواتين المغول وبعض جندهم وقبائلهم وظل لبعض الآخر على الوثنية واعتنق فريق المسيحية أو البوذية.

والمرحلة الثانية: هي مرحلة التحول التام والنهائي للإسلام وفيها أصبح الإسلام هو الدين الرسمي للدولة، وتعاقب على الحكم خواتين وملوك مسلمين.[٨]

وقد أسلم العديد من خانات مغول القبجاق بأسرهم وتبعهم الكثير من الجند والشعب حتى صار الإسلام الدين الرسمي لهم، وفيما يلي أهم خانات سراي المسلمين.

أ - إسلام بركة خان

تأثر بركة خان بالإسلام منذ طفولته فقد تربي على يد نساء المسلمين فيذكر انه بعد ولادته قال جوجي والده " أعطوا هذا الطفل لمربية مسلمة حتى تقطع سرته مسلمة ويرضع لبن مسلمة كي ينشا مسلما فقد جعلت هذا الولد مثلما ، وعندما وصل سن التأديب والتهذيب جمعوا قوما من أئمة المسلمين واختاروا واحدا منهم ليعلمه القرآن ، وكان تعليمه في مدينة خجند على يد واحد من علماء تلك المدينة الأتقياء "[٩] . وسواء صحت تلك الروايات أم لم تصح فإن البيئة التي تربى فيها بركة خان لم تخل من التأثير الإسلامي.

وقد وردت روايات مختلفة عن إسلام بركة خان هل أسلم قبل توليه عرش الخانية في سراي أم أثناء توليه العرش ؟ فيقول أبو الغازي أن بركة دخل الإسلام وهو خان على يد تاجرين وافدين من بخارى ، وتقول روايات أخرى أنه دخل الإسلام قبل اعتلائه العرش بتأثير بعض مشايخ خوجند وبخارى"[١٠]

والراجح أنه أسلم قبل توليه العرش في عهد باتو حيث تذكر الروايات التاريخية أن بركة خان توجه لحضور قوريلتاي تنصيب منكو خان وفي طريق عودته مر ببخارى وكان فيها الشيخ شمس الدين البخارزي أحد اتباع الشيخ نجم الدين كبرى فاجتمع به و ودعاه الشيخ البخارزي للإسلام وحسن كلام الشيخ عنده فأسلم على يديه - وكان أول من أسلم من بيت جنكيز خان - ، وأشار عليه البخارزي بمكاتبه الخليفة المستعصم ومتابعته ومهاداته"[١١]

بعد إسلام بركة خان أسلمت زوجته ججك خاتون واتخذت لها مسجدا من الخيام يحمل معها حيث ذهبت، وأسلم الكثير من مغول القبجاق، وأظهر بركة خان شعائر الإسلام، واستدعى العلماء والمشايخ من البلاد الإسلامية فكثر الوافدون من الفقهاء والعلماء فأكرمهم وأدناهم منه وشرع في بناء المدارس المساجد وأكثر منها[١٢]

كما رفض بركة خان العمل بقانون اليسا المغولية خاصة " بعد أن تولى قوبيلاي عرش القاآنية خالفه بركة خان " ونبذ قانون جنكيز خان وراء ظهره فلم يجر على وفقه من ذلك الوقت ثم تابعه أخلافه وذلك لتشرفهم بشرافة الإيمان والإسلام، ثم تتابعت المخالفة بينهم في جميع العصور لانصباغهم بصبغ الإسلام.[١٣]

ب - الخانات المسلمين في سراي بعد بركة خان

بعد وفاة بركة خان ولي الأمر من جديد خانات مشركون ولم يستقر الأمر نهائيا إلا في عهد أوزبك خان [١٤] ولم يكن لبركة خان وريث فاستقر الملك بعده لأخيه منكو تمر خان ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م[١٥] ولم يكن مسلما ودام حكمه إلى عام أن توفي في عام ٦٨١ هـ /١٢٨٢ م ، وملك بعده ابنه تدان منكو وجلس على العرش في سراي[١٦]

كان تدان منكو مسلما شديد التمسك بالإسلام ، فلم يكد يتولى العرش حتى أرسل إلى مصر وفدا من فقهاء القبجاق إلى مصر يتكون من " مجد الدين أطا"، و"نور الدين أطا" ومعهما كتاب يتضمن دخول الخان في دين الإسلام، وأنه يقيم شرائع الإسلام ونواميس المسلمين وطلب تقليدا من الخليفة ولقبا ينعت به من ألقاب المسلمين، وعلما وراية للخلافة العباسية.[١٧]

واستمر تدان منكو في الحكم إلى عام ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م حيث تنازل عن العرش لتلابغا خان بعد أن أظهر الزهد والتخلي عن النظر في أمور المملكة وانصرف إلى مصاحبة الشيوخ والفقراء والمتصوفة.[١٨]

ولم يكن تلابغا مسلما بل شامانيا وكان خلفه أيضا طقطاي يدين الشامانية على دين المغول في عبادة الأصنام والكواكب ، ويعظم الحكماء والأطباء والسحرة ، ويكرم المسلمين من جميع الطوائف . [١٩] بينما اعتنق ابن الخان طقطاي الإسلام وكان يحب سماع القرآن وإن لم يفهم معانيه وأنتوى إن ملك البلاد بعد ابيه ألا يترك فيها دينا غير الإسلام ولكنه مات في حياة أبيه.[٢٠]

وقد كان أوزبك خان مسلما شديد التمسك بالإسلام ، وقد وردت روايتان في إسلامه أحداها: أنه أسلم في شبابه وقبل توليه عرش الخانية على يد اربعة من الفقهاء الفرس هم سيد شيخ ، والشيخ " قولقات" والشيخ "أحمد" والشيخ "حسن قرقان"، والرواية الثانية: أنه أسلم بعد توليه عرش الخانية ، وكان قد بايع له نائب السلطنة " قطلتمر" بعد أن عاهده اوزبك على أنه إذا جلس على العرش فسوف يعتنق الإسلام ويتمسك به فلما ساعده قطلتمر على ذلك دخل في دين الله راغبا واتخذ مسجدا وصلى فيه الصلوات الخمس في أوقاتها.[٢١]

وكان أوزبك خان حسن الإسلام متظاهر بالديانة والتمسك بالشريعة محافظ على إقامة الصلاة ومداومة الصيام مع قربه من الرعايا والقاصدين

إليه.[٢٢] وحرض رعيته على الإسلام فأسلم بعضهم.[٢٣] ولي العرش بعده ابنه محمود جاني بك وكان مسلما كما كان حفيده محمد بردي بك أيضا مسلما.

خلاصة الأمر أن الخانات في سراي كانوا - في الغالب- مسلمين متمسكين بالدين الإسلامي حريصون على إظهار شعائره في تصرفاتهم وحياتهم الخاصة ، فنرى بركة خان يبتعد في تسمية أولاده عن الأسماء التركية والمغولية المألوفة لما تتميز به من طابع وثني ويتخذ لهم أسماء عربية إسلامية فهذا حسام الدين، وذاك صلاح الدين، وثالث بدر الدين، ورابع سماه ناصر الدين محمد ليس هذا فقط بل نراه يرسلهم إلى القاهرة ليلعبوا من الثقافة العربية الإسلامية.

كما اتخذ الخانات لأنفسهم ألقابا إسلامية فبركة خان يسمي نفسه أبو المعالي ناصر الدين السلطان بركة خان وأوزبك خان يسمى نفسه الملك المظفر غياث الدين محمد اوزبك خان وابنه جاني بك يسمي نفسه السلطان جلال الدين أبو المظفر محمود جاني بك ، كما يتخذون لقب السلطان وهو لقب إسلامي اشتهر به ملوك الإسلام" . [٢٤] وانتشرت المساجد والزوايا " وفيها ثلاثة عشر مسجدا لإقامة الجمعة أحدها للشافعية ، وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جدا " [٢٥]

الخاتمة

كان إسلام بركة خان نقطة تحول في تاريخ المغول عامة وليس مغول القبجاق فقط، وبإسلامه أسلم غالبية الجند والأمراء، وارتبطت سراي بالعالم الإسلامي وخاصة القاهرة، واستقدم لها بركة خان الصناع والحرفيين والعلماء من القاهرة، واتخذت سراي شكل وطابع المدن الإسلامية في العمران والبناء والحياة الاجتماعية.

كان للدعاة المسلمين في آسيا فضل كبير في نشر الإسلام بين المغول وخاصة الطرق الصوفية التي ازداد نشاط مريديها ، وبلغ من قوة تأثيرهم أن اعتنق الخان تدان منكو الطريقة الصوفية ومال إليهم ، وركن إلى حياة الزهد والتصوف وترك عرش الخانية في سراي.

كان الإسلام كفيلا بأحداث عدة تغييرات مهمة في حياة مغول القبجاق فمنذ تحول المغول بدأوا يظهرون شعائرهم الإسلامية في مختلف جوانب الحياة الإدارية والاجتماعية فقد ولي الوزارة في سراي وزراء مسلمون كما شغل منصب القضاء أيضا علماء مسلمين . وأخذت قوانين الياسا في التراجع مقابل أحكام الشريعة الإسلامية وخاصة عهد حكم خانات مسلمين. وحرص الخانات على إظهار شعائر الإسلام.

الهوامش:

(١) مصطفى طه بدر: محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول ، ص٨٢.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ،ص ٢١٥.

(٣) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣٨٢.

(٤) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ،ص ٢٥٠.

(٥) رجب عبدالحليم: انتشار الإسلام بين المغول ص ١٠٩ .

(٦) محمد مرسي الشيخ: أوربا والتتار، ص ٣٤٦.

(٧) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٢٧٠.

(٨) رجب محمد عبدالحليم: انتشار الإسلام بين المغول، ص ١٠٣.

(٩) الجوزجاني: طبقات ناصري، ج٢، ص٢٢٦.

(١٠) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطي، ص ١٩٥.

(١١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ،ص ١٦ ؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار، ج ٣ ، ص ١٠٣ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الأنشا، ج ٤، ص ٣٠٩ ؛ ابن عرب شاه : عجائب المقدور، ص ٥٧.

(١٢)ابن دقماق : نزهة الأنام، ص ٢٢١ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي، ج ٣ ،ص ٣٥٠ ؛ م. م الرمزي : تلفيق الأخبار ،مج ١ ،ص٤١١، ٤٠٦ ؛ رجب عبد الحليم : انتشار الإسلام بين المغول ،ص ١١.

(١٣) م. م الرمزي : تلفيق الأخبار ،مج ١، ص ٣٥٩.

(١٤) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ،ص ١٩٧.

(١٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ص ١٠٨ ؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٧ ،ص ٢٤٥ ؛ المقريزي : السلوك ،ج ٢ ،ص ٤٥ ؛ ابن سباط : تاريخ ابن سباط ،ج ١ ص ٤١٥.

(١٦) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار، ج ٢٥ ،ص ١٩٠ ؛ ابن سباط : تاريخ ابن سباط ،ج ١، ص ٤٨٠.

(١٧) رجب عبد الحليم : انتشار الإسلام بين المغول، ص ١١٩.

(١٨) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ،ج ٢٧، ص ٢١٨.

(١٩)الذهبي : العبر في خبر من غبر ،ج ٤٥ ،ص ٣٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ،ج ١٨ ،ص ١٢٦ ؛ابن فضل الله العمري : مسالك الإبصار ،ج ٢٥، ص ٣٣٤ ؛ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ،ج ٢ ، ص ٣٣٤ ؛ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٨ ،ص ٥٧ ، انفرد الرمزي بالقول بإسلام طقطاي مفسرا القول بعدم إسلام طقطاي يرجع إلى عدم ظهور الإسلام منه قويا مثل أسلافه .م .م الرمزي : تلفيق الأخبار ، ص ٥٠١.

(٢٠)رجب عبد الحليم : انتشار الإسلام بين المغول، ص ١٢٢.

(٢١)رجب عبد الحليم : انتشار الإسلام بين المغول ،ص ١٢٤ .

(٢٢) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ،ج ٣ ،ص ١٤٥.

(٢٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ،ج ١٠ ، ص ٦١.

(٢٤) رجب عبد الحليم : انتشار الإسلام بين المغول ،ص ١٤٧.

(٢٥) م.م الرمزي : تلفيق الأخبار ، مج ١ ، ص ٤١٢.